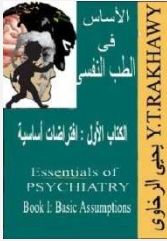


الإثنين 26-01-2011

1244- الأساس: الكتاب الأول: الافتراضات الأساسية (32)



الصحة النفسية (25)

ماهية الحرية، والصحة النفسية (8)

التنازل عن الحرية لإحيائها: (الحزن النابض: ضد الجنون!)

مقدمة:

كان عنوان نشرة أمس شديد التحدي، جديد الغرابة، وكانت النشرة مختصرة مركزة، حتى فزعت وأنا أقرأها اليوم لأكمل، مستوى في ذلك العنوان تحديداً "الجنون هو فعل الحرية لتستحيل" أو ما جاء بالعنوان الفرعي "الجنون مقصلة الحرية" ثم ما جاء أيضاً بالمتن يقول: "الحرية تنفتح اختياراً"،!، وقد توقعت هجوماً مشروعاً من تعليقات وتعقيبات تؤكد الصعوبة أو عدم الفهم.

استكمالا لهذا المفهوم، إنتبهت إلى صياغة في الاتجاه الآخر، بمعنى يؤكد أن الحزن النابض باعتباره الموقف الدال على التوجه إلى إرساء علاقة بالآخر، برغم الصعوبة (ضد الجنون) إنما يتضمن تنازلاً عن بعض الحرية في مقابل هذه العلاقة بشكل أو بآخر.

ولقد شعرت من هذا وذاك بما يؤكد ما أريد توصيله عن مفهوم الحرية، ليس بالمعنى السطحي الشائع "حريتي تنتهي عند بدء حرية الآخرين"، وإنما بالمعنى الذي اقترحتة سالفاً لنقد هذه المقولة قائلًا: "حريتي تبدأ حين تلتحم جدلاً مع حرية الآخرين"،

أما الثمن الذي ندفعه لهذا التنازل الواعي فهو الحزن العظيم، ليثبت أنه الثمن الذي نقبضه وليس الذي ندفعه،

هذا الحزن الخيوى هو كذلك شريطة ألا يتعدى الحدود إلى الاكتئاب العميق.

الفرض المكمل هنا يقول:

"إن الحزن الخيوى هو موقف دال على فعل الوعى المتكامل (المتعدد معا) فى مواصلة سعيه للتفاعل الموضوعى مع وعى بشرى آخر يقوم بنفس الدور، وهذا نوع أرقى (أو أكثر حركية نماء) لأنه إعلان إرادة اختيار نوع ناضج من الحرية يكاد يختص به الكائن البشرى

إن نمو الإرادة مثل سائر الوظائف النفسية، يتناسب تناسباً طردياً مع مسيرة التكامل، أى مع المساحة من النفس التى تعمل "معا"، أى مع مدى الترابط وعمق الولاى المتصاعد بين كل مستويات الوعى، ومستواه".

الاكتئاب والآخر واختبار كلية العلاقة

لا توجد إرادة بالمعنى الحقيقى إلا فى حضور "آخر" موضوعى مائل تتم مواجهته والتفاعل معه على نفس المستوى من مواجهة الوعى الفاعل (بمستوياته المتعددة).

إن الاختبار الحقيقى لفعل الإرادة (الحرية) لا يكون فى فراغ،

يسرى هذا حتى على من يعلن حريته بانسحابه عن "الموضوع" (الآخر/الواقع) كلية، مثل الفصامى (السلبي) الذى يبدو وكأنه قد تنازل فى واقع الأمر عن حقه فى أن تقيم اختياراته بميزان حضور الآخر فى وعيه، إلا أن النظرة التالية تُظهر كيف أن الآخر (الواقعى) قد حضر عند الفصامى بشكل جعله لا يقبله احتجاجاً، فاحتد عليه انسحاباً، وهذا نوع من "تأكيد الحضور بالغياب، فالتغيب"، بما لا يتناقض مع فرضنا الأساسى الذى يشير إلى أن المجنون (بدءاً) بالفصامى) قد اختار أن يسلب نفسه حق الاختيار.

البارنوى (المجنون) الذى ألف لنفسه علمه البديل عن "الآخر" (الواقعى أيضاً)، أو اختزل الآخر إلى مصدر تهديد أو وعيد، باعتباره خطراً على تفرد، هو أيضاً يمارس إرادة جزئية ذاتية منغلقة حتى لو تجلت فى أفعال توحى باختيار حاسم يؤكد استبدال الآخر بأخرين من صنعه، أو من ذخيرة داخله وهم عادة ملاحقون مطاردون له، معقبون على أفعاله، موجهون لسلوكه، برغم أنهم ليسوا إلا بعض داخله.

تتجلى الإرادة الحقيقية المرتبطة تمام الارتباط بحضور الآخر فى الخارج وفى الوعى فى موقف (مأزق) الاكتئاب الأصلى (البيولوجى/المواجهى) كما ذكرنا حالاً: حيث يعتبر حضور "الآخر" - فى الواقع والوعى معا- بكل موضوعيته وتحدياته هو المسئول عن ظهور هذا النوع من الاكتئاب بشكل أو بآخر، هذا يختص بالحديث عن الاكتئاب الخيوى الحركى النشط على مسار النمو والمرض، وهو ما يمثل تجليات "الموقف الاكتئابى" (جانترب) فى المرض (والصحة) أثناء النمو،

هذا الاكتئاب هو إنساني في المقام الأول بل يكاد يكون خاصاً بالإنسان دون سائر الأحياء (الوعي والوعي بالوعي في حضور آخر)، ذلك أن ممارسة هذا الحزن اليقظ يتطلب من صاحبه أن يحافظ على علاقته بالآخر، بالتنازل النسي عن حريته، فهو لا ينسحب من مواجهته، ولا يلغيه، ولا يستبدله، ولكي يحقق ذلك فإنه يختار "إهمال" الذي يحافظ على هذا الوعي وهو "واقعية العلاقة"، وهو إذ يفعل ذلك يجد أن عليه أن يتحمل الوعي بكلية الآخر وبمخاطر الاقتراب منه مختلفاً ككل موضوعي، في نفس الوقت هو يفعل ذلك دون يقين باستمرار هذا الحضور، فيعابش احتمال أن يهجره هذا الآخر طول الوقت، فيتولد هذا الاكتئاب الحيوي أكثر إيلاماً وحيوية، الأمر الذي يعلن حركية الحرية/الإرادة بشكل عميق متجدد.

الوعي بالآخر - كموضوع حقيقي - مع اختيار الاستمرار معه دون اختزال أو إهمال، هما العاملان الأساسيان اللذان يولدان هذا الحزن الأساسي

هذان العاملان الأساسيان هما اللذان يسعى إلى تحقيقهما العلاج النفسي عموماً والجمعي خصوصاً، ومواجهة هذا الاكتئاب سواء بتخفيف جرعة المواجهة وليس بالغائها تسكيناً، أو بتعميق "المواكبة" المنتظمة خصوصاً في العلاج النفسي الجمعي، هو الذي وصفته تحديداً بتعبير "إحياء ديالككتك النمو" حيث يهدف هذا العلاج إلى تنمية الوعي ليس فقط بالآخر كموضوع شخصي، وإنما بجانب الآخر من كل قضية، ومن كل موضوع، ومن ثم الوعي بـ "كلية الآخر" وحرية معاً.

خلاصة القول:

نلاحظ كيف أن هذا الموقف (التنازل عن الحرية لتخليقها مع آخر) هو أقرب إلى الصحة الفائقة منه إلى كل من "العادي" أو "المجنون"، فهو بمثابة "فعل الحرية المنضبطة لاختيار ما هو "ضد الجنون"

أو بتعبير آخر كأنه التنازل عن الحرية لإحيائها (مع دفع ثمنها)

ثم مرة أخرى: إن ثمنها كما ذكرنا هو ذلك الحزن الحيوي النمائي .

إن تعريفنا لما هو إنسان بأنه الكائن الذي اختار أن يحمل الأمانة حتى دون أن تعرض عليه عندما اكتسب الوعي، ثم الوعي بالوعي، ثم راح يمارس عبء ما اكتسبه هذا مع كائن بشري آخر له نفس الموصفات، هو الذي فرض علينا هذا النوع من الحرية الذي أصبح - حسب هذا الفرض - هو ممارسة حريتنا من خلال قدرتنا على "أن نحزن معاً" لنمارس حمل أمانة العلاقة مع بعضنا البعض معاً، لنفرح معاً، وهكذا.

- أنظر أبعاد الإرادة في (نشرة 2010/12/21 "الإرادة - التوجه - الحرية" في تجليات الوجود البشري)، (نشرة 2010/12/22 "ماهية الإرادة")

- "الاكتئاب البيولوجي المواجهي" هو مصطلح صكه المؤلف من خلال فرض يحاول التحقق من صحته خلال سنوات خبرته الإكلينيكية، وهو يعتبر هذا النوع الذى أسماه بالإنجليزية Biological Confronting Depression وبالعربية "الحزن الحيوى النابض"، وهو يختلف كل الاختلاف عن الاكتئاب بمعناه المرضى، وعن "الزهق" بالعامية، وعن الهم، وعن الغم، وعن الضيق، مما لا مجال لتفصيله. هذا الحزن الحقيقى- من خلال هذا الفرض - هو جزء لا يتجزأ من مظاهر وضرورات العلاقة بالموضوع بالمعنى الذى شرحته مدرسة التحليل النفسى الإنجليزية (جانتر بوجه خاص) ، باعتبار أنه يعلن صعوبة العلاقة بموضوع (آخر) حقيقى مستقل لا مفر من صحبته برغم صعوبة استقباله بما هو. وسوف نتناول كل ذلك فى عمل مستقل نرجو ألا يطول انتظاره، هذا علما بأن إرهابات هذا الفرض ظهرت فى فكر المؤلف من قديم أنظر "دراسة فى علم السيكوپاثولوجى" دار الغد للثقافة والنشر 1979- القاهرة.

- مدرسة العلاقة بالموضوع

- كما خلقنا به - "خلقة ربنا" حسب التعيير المستعمل لإثارته فى ثقافتنا فى المقابلة الإكلينيكية وفى العلاج الجمعى خاصة.

- د. يحيى الرخاوى "مقدمة فى العلاج الجمعى"